حضرموت.. ثراء وتنوع سياحي يرضي كل الزوار (٢-٢)

سيئون-شبام-تريم.. مدن لمعت في سماء الحضارة والتاريخ

استطلاع/ عبدالباسط النوعة

كانت حضرموت ولا زالت موطناً كبيراً يحمل بين ثناياه وضواحيه كنوزاً متنوعة وفريدة خلفتها الحضارات والدويلات السالفة التي سكنت وعمرت حضرموت منذ قديم الأزل ومع أنها مضت وانقرضت إلا أنها لا زالت حاضرة تحكي أمجاد ماض تليد تسطره بقايا آثار وشموخ معالم ومدن تاريخية وأشكالاً من الموروثات الشعبية ولعل الجميع يعرف أن محافظة حضرموت تصنف على قسمين أو جزءين المكلا وما جاورها من مناطق ومدن، والقسم الثاني يطلق عليه حضرموت الوادي والصحراء، ولعلنا في الحلقة السابقة التي احتواها العدد الماضي من الثورة السياحي قد تناول مدينة المكلا التي كان لنا شرف زياراتها وها نحن في الجزء الثاني من هذا الموضوع سوف نتناول بعضاً من مدن مناطق حضرموت الوادي والصحراء وهذا القسم يحوي كماً هائلاً من المناطق والمدن ولكن سيتم تناول المناطق التي زارتها الثورة السياحي.

لعل المدينتين الأشهر في محافظة حضرموت هما المكلا وسيئون ورغم أنهما في محافظة واحدة إلا إنها متباعدتان كثيراً ويقول الأخ/سعيد شريان المرشد السياحي المرافق أن المسافة التي تفصل بين سيئون والمكلا تقدر بـ«٣٠٠» كيلومتر، ومع هذا عند ما تسافر في هذا الخط الطويل لا تشعر أبداً بالملل بسبب تنوع التضاريس واختلاف المناطق وجمالها على طول الخط فقد غادرنا من المكلا حوالي العاشرة صباحاً وفي تمام الثانية عشرة والنصف وصلنا إلى وادي دوعن فقد كان برنامج الرحلة يتضمن تناول وجبة الغداء في إحدى مناطق الوادي، وأثناء دخولنا إلى مكان الغداء كانت المفاجأة فقد وصلنا إلى منتجع جميل جداً تم بناؤه على أحدث الأساليب وتمت مراعاة تقاليد المنطقة في الديكور والآثار فقد صمم هذا المنتجع الجميل الذي تعود ملكيته لرجل الأعمال اليمني عبدالله بقشان، بني في موقع استراتيجي حيث يطل على الوادي السحيق والمغطى بأشجار النخيل العملاقة وعلى حوافي الجبل تشاهد القرى الجميلة لعل أبرز القرى قرية بنيت فوق إحدى الصخور الضخمة والعملاقة فضلاً عن قرية أخرى تحوي أجمل القصور في وادي دوعن وقد أصبح هذا القصر فندقاً وهو يحوي من الألوان والنقوش البديعة الكثير والكثير وفيه عشرات الغرف والأجنحة وهو قصر قديم مبني من الطين والحشيش ومنتجع «حيد الجزيل» يمثل متنفساً ومسكناً جميلاً يتيح للزائر الاستمتاع بمنظر الوادي الذي يأسر الألباب ويسلب العقول لأننا كان لا بد أن نلتزم ببرنامج الرحلة غادرنا هذا المنتجع الذي أدهشنا جماله ودقة صنعه وعظمة المنظر الذي يطل عليه وقد حاول البعض أن يقنع مسئول الرحلة بالمكوث أطول إلا أن الالتزام بالبرنامج كان أمراً لا بد منه وعندما تحدثنا مع مدير المنتجع وجنسيته «هندي» عن وضع المنتجع والحركة السياحية، أكد لنا أن المنتجع لم يتأثر كثيراً بحالة الركود السياحي بسبب أن هناك بعض السياح معظمهم من دول مجلس التعاون الخليجي منبهرون جداً بهذا المنتجع فأصبحوا يحرصون على زيارته باستمرار وهذا لا يعني أبداً أنه لم يتأثر ولكن التأثير ينحصر في قلة الحجوزات من قبل الشركات السياحية لا سيما بعد الحادث الذي تعرض له بعض السياح الإيطاليين عند خروجهم من مدينة شبام حضرموت التاريخية.

وادي دوعن واسع وجميل

* نزلنا إلى الوادي بواسطة طريق جميل ولا حظنا كيف تم شق الجبل نصفين من أجل أن تكون هذه الطريق أكثر أمناً وسلامة وقد أوضح «شريان» أن هذه الطريق تم شقها بعد كارثة السيول والفيضانات التي تعرضت لها حضرموت، فقد التهمت هذه السيول أجزاء كبيرة من الطريق الأسفلتي السابق ولهذا تم عمل الطريق الجديد على انقاض الطريق السابق مع إحداث بعض وسائل التأمين المناسبة وهذه الطريق جاءت على نفقة رجل الأعمال عبدالله بقشان..

ومع أن القصر الملوث الذي شاهدناه من الأعلى لا يقع على طريقنا إلا أننا أصررنا على ضرورة زيارته عن قرب، وكان منظر القصر رائعاً جداً لم نستطع الدخول إليه حينها إلا أننا في زيارة أخرى وتحديداً في خضم الاحتفال بتريم عاصمة الثقافة الإسلامية تمكنا من دخول القصر والاستمتاع بجماله من الداخل ونقوشه البديعة ذات الألوان المتنوعة وسعدنا بتناول الغداء في ذلك القصر الرائع حيث قدم العاملون فيه صنوفاً من المأكولات الشعبية التي تشتهر بها محافظة حضرموت بشكل عام ووادي حضرموت على وجه الخصوص، وفي الطريق إلى سيئون أعلى وادي دوعن تنتشر على جنبات الوادي الكثير من القرى والمناطق ذات الطراز المعماري الممتاز والجميل والمعتمد أساساً على مادة الطين ولعل أشهر المناطق التي اشتهرت بعراقتها وقدمها مدينة الهجرين التي تتربع فوق هضبة مرتفعة عن الوادي ومنازلها التاريخية متراصة ومتداخلة مع بعضها بأسلوب فني ومعماري رائع جداً ونظراً لارتفاعها عن الوادي فقد كان تأثير السيول والفيضانات على هذه المدينة التاريخية محدوداً وللغاية إن لم يكن معدوماً وقد قال رئيس الهيئة للمدن التاريخية الدكتور عبدالله زيد عيسى أن هذه المدينة تعتبر من أهم وأجمل المدن التاريخية في اليمن وهذه المدينة لا زالت محافظة على طابعها التاريخي القديم، والأجمل أن الناس والأهالي في تلك المدينة مدركون أهمية الحفاظ على طابع منازلهم التاريخي وأن أي استحداث أو تدخل معماري لا بد وأن يتماشى مع طابع المعمار التقليدي للهجرين، واعتبر الدكتور عيسى أن وادي دوعن يحوي الكثير من أنماط المعمار الطيني الجميل والقوي وفيه الكثير من المناطق والقرى بحاجة ماسة إلى الاهتمام والحفاظ عليها، فحيثما تتجه تشاهد المعمار الطيني التقليدي منتصبا غير متدرك لتغيرات المناخ وصعوباتها وتقادم السنين، ولكن بدأ ينتشر في كثير من مناطق الوادي التقليدية معمار جديد قائم على الأسمنت والخرسانة المسلحة الأمر الذي يعد خروجاً عن المألوف لدى السكان الذين اعتادوا على الطين في صنع أشكال معمارية رائعة وجميلة جداً من الخارج قبل الداخل، إلا أنهم يقومون بعد ذلك بتغطية ذلك الأسمنت تماماً بالطين فتظهر المنازل بعدها وكأنها من الطين.

مسجد وضريح العطاس

كما تشاهد على جنبات الطريق بعض المعالم الدينية لمساجد وأضرحة قديمة، لعل أشهرها على الإطلاق ضريح ومسجد يقع على الجانب الأيسر من الطريق وهذا المسجد أو بمعنى أصح «رباط» كان ولا يزال مقصداً للكثير من طلبة العلم القادمين من مختلف مناطق حضرموت ومناطق يمنية أخرى أو الوافدين من دول إسلامية، فقد وجدنا أثناء زيارتنا للضريح ثلاثة طلاب من ماليزيا اثنان، والثالث من اندونيسيا وهم أيضا يدرسون في دار المصطفى بتريم ولعل أشهر منطقة أشتهرت أيضا مثلث بن عيفان وهذا المثلث مشهور كثيراً لا سيما عند التجار ومنه تتفرع ثلاث طرق طريق تؤدي إلى مارب ومن ثم صنعاء وأخرى إلى سيئون والمناطق المجاورة لها والثالثة تؤدي إلى المكلا وهذا المثلث بحاجة إلى إعادة تأهيل فهو استراحة لكل المسافرين وبالتالي يحتاج إلى تطوير من حيث المنتزهات والاستراحات وحتى المطاعم، ومع أن المثلث يحوي مطاعم واستراحات للمقيل والنوم لوكندات إلا أنه يحتاج إلى إعداد تلك المطاعم وغيرها سياحياً بمعنى أن تكون مستعدة لاستقبال السياح وجديرة بتقديم خدمات متميزة لهم تعكس صورة إيجابية عن اليمن بشكل عام، فالمطاعم الموجودة لا زالت تصنف على أنها شعبية.

مركز المعمار الطيني مشروع متعثر منذ سنوات عديدة

حوطة سيئون

بعد رحلة دامت ساعات طويلة من المكلا إلى سيئون كانت محطة الوصول مدينة الحوطة القريبة من سيئون وهي مدينة لا تقل جمالاً عن بقية المدن والمناطق في الوادي والصحراء وكان من حسن الحظ أن الفندق الذي وصلنا إليه كان يمثل آية من آيات الجمال والراحة فهذا الفندق عبارة عن مبنيين الأول قصر قديم تم ترميمه ليكون فندقاً ذا غرف وأجنحة رائعة وتم بناء مبنى آخر بجواره بنفس نمط القصر القديم، أما الأثاث الموجود في ذلك الفندق فقد صمم بشكل فني رفيع وبأسلوب تقليدي يمني حضرمي ولعل الحديقة الواسعة لهذا الفندق هي الجزء الهام، فهي عبارة عن حديقة واسعة ذات نخيل وأشجار وزهور وفيها مسبح مفتوح واستراحة مطلة على المسبح وكم كان المنظر جميلاً ولا يمكن وصفه في ساعات الصباح الباكر فالتجوال في تلك الحديقة يشرح الصدر ويريح الفؤاد ويقال أن ذلك الفندق كان من تصميم أحد الخبراء الأوروبيين في مجال المعمار والديكور وهذا الفندق «قصر الحوطة» فاز بجائزة أفضل منشأة سياحية للعام ٢٠١٠م في اليمن وقد سلمت هذه الجائزة في حفل كبير حضره كبار مسئولي الدولة وعلى رأسهم دولة الدكتور علي محمد مجور رئيس مجلس الوزراء الذي قام بتسليم الجائزة لصاحب الفندق رجل الأعمال المعروف علوان الشيباني.

أهمية وتعثر

وجوار ذلك الفندق يوجد مبنى ضخم بني من الطين ، هذا المبنى الضخم قيل أنه يسمى مركز المعمار الطيني ولكنه لم يعمل منذ سنوات، وهو يتبع هيئة المدن التاريخية، وعن هذا المركز يقول الدكتور عبدالله زيد عيسى رئيس هيئة الحفاظ على المدن التاريخية أن هذا المركز يعد مشروعاً ضخماً سعت الهيئة لإقامته لخدمة المنطقة التي يغلب عليها البناء الطيني القديم، وحرصاً من الهيئة على ديمومة البناء الطيني والحفاظ عليه من سطوة البناء بالخرسانة المسلحة والأسمنت وهذا المركز سوف يقوم بإعداد وتأهيل مختصين بالبناء الطيني، حيث لوحظ أن المعماريين المختصين بالبناء الطيني البعض منهم قد فارق الحياة والبعض الآخر أصبحوا كبار سن ومن النادر أن تجد معماريين من الشباب وهذا المركز سيوفر أولئك المعماريين، حيث سوف يتم استغلال المعماريين المسنين الذين لا يزالون على قيد الحياة طبعاً مع الاستعانة بخبراء في المعمار الطيني.

وعن أسباب تعثر هذا المشروع الهام أوضح عيسى أن المبنى أصبح شبه جاهز ويحتاج فقط لتشغيله وتوفير نفقات كافية للتشغيل وهذا ما نقف عاجزين أمامه وحاولنا الاستعانة بجهات أخرى لتتولى تشغيله وتزويده بالكادر، فهذا المركز يمثل أهمية كبرى للمعمار الطيني وسوف يكون مركزاً تعليمياً وبحثيا يهم شريحة كبيرة من المهتمين بالمعمار الطيني سواء من داخل اليمن أو خارجها.

وللأسف الشديد أن يظل مركز كهذا لسنوات وهو ينتظر أن يسدل الستار عنه ليمارس دوره الذي من أجله تم ترميم واستحداث مبنى ضخم كلف الكثير من الأموال فما تم صرفه يفوق بكثير نفقات التشغيل التي يحتاج إليها المركز ليرى النور، فالأرقام ربما تتحدث عن «٧٠» مليون ريال انفقت على ترميم وتجهيز ذلك المركز.

قصر سيئون العظيم

مدينة سيئون وقصرها العملاق ذو الثلاثمائة وخمسين غرفة أو تزيد المتربع فوق ربوة مرتفعة قليلاً على مستوى المدينة ينتصب شامخاً يشاهده الناس من مختلف حارات وشوارع سيئون وهذا المبنى ربما يعاني القليل من الإهمال فهو بحاجة إلى ترميم في جزء بسيط من إحدى الواجهات وتحديداً تلك الجهة المقابلة للمسجد الصغير داخل القصر أو الجامع الكبير الموجود خارج أسوار القصر فضلاً عن أن المسجد الصغير التابع للقصر يحتاج إلى ترميم وكذلك السور في تلك الجهة، وهنا يقول أحد موظفي الآثار: يقع مكتب آثار الوادي والصحراء في إحدى أجنحة القصر أن بعض الشقوق أو التشرخات بدأت تظهر في جدران ذلك الجزء وبحاجة إلى سرعة معالجة وترميم ما لم فسوف تتوسع هذه التشرخات وبالتالي يصعب السيطرة عليها وتحتاج بعدها إلى الكثير من الإمكانيات والجهود خاصة أن القصر كما هو معروف مبني من الطين والجميع يعرف مدى حساسية البناء الطيني إذا ما أصيب بأي خلل وبالتالي يحتاج إلى صيانة دورية وباستمرار وهنا ندعو إلى ضرورة العمل وبشكل سريع على صيانة القصر الذي يمثل ثروة وطنية وحضارية كبيرة وبجوار القصر يوجد السوق القديم الذي يحوي صنوفاً شتى من المواد والبضائع والمنتجات مثل البهارات بأنواعها والعسل والحلويات والحبوب والبخور والطيب وغيرها الكثير.

مدينة عجائب الحضارة

ومن مدينة سيئون وقصرها المليء بالعجائب والغرائب إلى مدينة الحضارة وأم المدن اليمنية القديمة شبام حضرموت موطن ناطحات السحاب الأولى في العالم حسب ما سماها أحد المعجبين الأجانب ممن اهتموا بالتراث الإنساني وأبهرتهم هذه المدينة بمبانيها العالية ذات الطوابق المتعددة رغم أنها مبنية من الطين نوافذها الخشبية وأبوابها الخشبية أيضا تحوي نقوشاً وزخارف بديعة قيل أنها تحاكي الطبيعة أو تحاكي مواسم الزراعة أو مظاهر الحياة